﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [النّحل: 45]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تهديد المشركين بعذاب الله في الدّنيا، بعدَ الرّدّ عليهم، وتنبيههم على التّفكّر

لمّا نَبَّه الله سبحانه على التَّفكُّر، وكان هذا التّفكّر داعيًا للعاقل إلى البُعد مِنَ الخطر، سبَّب عنه إنكارَ الأمنِ مِن ذلك، فقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾[1]، و"هذه الآية تهديدٌ لأهل مكّة، وهم المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قول الأكثر، وقال مجاهد: المراد نمروذ بن كنعان، والأوّل أظهر"[2].

فالآيتان السّابقتان رَدَّتا ما زَعمَه الكُفّارُ مِن أنّ الرَّسول ﷺ لا يكون مِنَ البَشَر، وتُهدِّدُ هذه الآية المشركينَ بعذاب اللهِ في الدُّنيا، لِما هم فيه مِن كُفرٍ وتكذيبٍ لنُبوَّة نَبيِّنا مُحمَّد ﷺ، وتُنَبِّهُ مِن سوءِ عاقبة ما هم فيه مِن كُفْر وعِصيان، وعِنادٍ وجُحود.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفَأَمِنَ﴾: أصلُ الأمن: طمأنينةُ النَّفسِ وزَوالُ الخَوفِ[3]، وله معنيان مُتدانيان؛ أحَدُهُما: الأمانَةُ الَّتي هي ضِدُّ الخيانَةِ، ومعناها سُكونُ القَلْبِ، والآخَرُ: التَّصْديقُ[4]، يُقال: رَجلٌ أمَنة، بِالفَتْح، للَّذي يُصدِّق بكُلِّ ما يَسمَع، ولا يكذِّب بِشَيء[5]، ورَجُلٌ أمَنةٌ أيْضًا: إذا كانَ يَطمئن إلى كُلِّ أحدٍ، والأمنُ: حالَةُ اطمِئنانِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 169.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 396.
(3) الرّاغب، المفردات، والزَّبيديّ، تاج العروس: (أمن)، والمناويّ، التَّوقيف على مُهمّات التَّعاريف، ص: 63.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أمن).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (أمن).

النَّفْسِ، وراحَةِ البالِ، وانتفاءِ الخَوفِ مِن كُلِّ ما يُخافُ منه، وهو يجمعُ جميعَ الأحوالِ الصّالحةِ للإنسانِ، مِنَ الصِّحَّةِ والرِّزقِ ونحوِ ذلكَ، يُقالُ: آمَنَ به قومٌ، وكذَّب بِهِ قومٌ، فأمّا آمَنْتُهُ المُتَعَدِّي، فهوَ ضِدُّ أخَفْتُه[1]، وقولُه تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين: 3] قال الأخفش: يريد الآمن، وهو مِنَ الأمن، قال: وقد يقال الأمين المأمون[2]، والمقصود بالأمن في الآية: النَّجاةُ مِنَ الخَوفِ.

2) ﴿مَكَرُواْ﴾: أصلُ المكر: الاحْتِيالُ والخِداعُ[3]، وقد مَكَرَ به يَمكُرُ، فهو ماكِرٌ ومَكّارٌ، ومَكَر به: كادَه[4]، قال الجُرجانيُّ: المَكْرُ: إيصالُ المَكْروهِ إلى الإنسانِ مِن حيثُ لا يَشعُرُ[5]، وأمّا السُّيوطي فقال: ما يَقصِدُ فاعِلُه في باطِنِه خِلافَ ما يقتضيه ظاهِرُه[6]، وهو على ضربين؛ مَكْرٌ محمودٌ، وذلك أن يتحرَّى بذلك فِعلَ جميلٍ، وعلى ذلك قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [آل عمران: 54]، ومذمومٌ، وهو أن يتحرَّى به فِعلَ قبيح، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: 43][7]، وأمكَر: جازَى على المكر، وسُمّي الجزاء مكرًا، كما سُمّي جزاءُ السّيّئةِ سيّئةً مجازًا، على سبيل مقابلةِ اللّفظِ باللّفظ[8]، والمقصود بالمكر في الآية: إلحاقُ الضُّرِّ بالغَيْرِ، في صورةِ تَمويهِهِ بالنُّصحِ والنَّفْعِ.

3) ﴿يَخْسِفَ﴾: (خسف): أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على غُموضٍ وغُؤورٍ، وإليهِ يَرجِعُ فُروعُ البابِ، فالخَسْفُ والخَسَفُ، غُموضُ ظاهِرِ الأرْضِ، قالَ اللّه تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: 81][9]، والخَسْفُ: زِلْزالٌ شَديدٌ تَتَشَقَّقُ بِهِ الأرْضُ، فتَحْدُثُ بِانْشِقاقِها هوَّةٌ عَظيمَةٌ تَسْقُطُ فِيها الدِّيارُ والنّاسُ، ثُمَّ تَنْغَلِقُ الأرْضُ على ما دَخَلَ فِيها[10]، قال بعضُ أهلِ اللّغة: لا يقال انكسف القمر، إنّما يقال: خَسَف القمرُ، وكَسَفت الشّمس[11]، وقال اللّيثُ:

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أمن).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (أمن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (مكر).
(5) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 227.
(6) السُّيوطيّ، معجم مقاليد العلوم، ص: 207.
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (مكر).
(8) الفيّوميّ، المصباح المنير: (مكر).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خسف).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 165.
(11) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (خسف).

الخَسْفُ: سؤوخ الأرض بما عليها، تقول: انخسف به الأرض، وخَسَف اللّهُ به الأرض[1]، والخَسْفُ في الآية: انقلابُ ظاهرِ الأرضِ في باطنها مِنَ الزِّلزالِ.

4) ﴿ٱلْعَذَابُ﴾: أصْلُ الكَلِمَةِ مِنَ العَذْبِ، وهو: المَنْعُ، يُقالُ: عذَّبْتُ عَنْهُ الماءَ، أيْ: مَنَعْتُهُ عَنْهُ، وسُمِّيَ العَذابُ عَذابًا؛ لأنّه يَمنَعُ الشَّخْصَ مِنَ الرُّجوعِ لِلْجَرِيمَةِ[2]، والعَذابُ: الضَّرْبُ بِعَذْبَةِ السَّوْطِ، أيْ: طَرَفِها[3]، والعَذابُ أيضًا: الإيلامُ والإيجاعُ الشَّديدُ، وقد قِيل: إنَّ أصْلَهُ الإعْذابُ، مَصْدَرُ أعْذَبَ، إذا أزالَ العُذوبَةَ؛ لأنَّ العَذابَ يُزيلُ حَلاوَةَ العَيْشِ، فصِيغَ مِنْهُ اسمُ مَصْدَرٍ بِحَذْفِ الهَمزَةِ[4]، والمُرادُ بالعذاب في الآية: كُلُّ ما فيهِ تأليمٌ يَستَمِرُّ زَمنًا.

5) ﴿يَشْعُرُونَ﴾: أصلُ (شَعَر) يَدُلُّ على عِلْمٍ وعَلَمٍ، فالإشعارُ: الإعلامُ، والشِّعارُ: العَلامَة[5]، والأصْلُ قَوْلُهُم: شَعُرتُ، أي: أصَبْتُ الشَّعْرَ، ومنه استُعير: شَعَرْتُ كذا، أي عَلِمتُ عِلمًا في الدِّقَّة كإصابة الشَّعر، والمَشاعِرُ: الحواسُّ، ومنه قوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: 2]، أي: لا تدركونه بالحواسّ[6]، والشُّعورُ: يُطلَقُ على العِلْم بالأشياءِ الخَفِيَّة، ومنهُ سُمِّيَ الشّاعِرُ شاعرًا؛ لِعِلْمِهِ بالمعاني الَّتي لا يَهتدي إليها كُلُّ أحَدٍ[7]، والمقصود بالشُّعور في الآية: العِلْمُ بِحُصولِ الشَّيءِ الحاصِلِ، والمرادُ بقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أنَّ العذاب يأتيهم بَغْتَةً، بلا عِلْمٍ، لا يَسْتَطِيعونَ دَفْعَهُ[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول اللّه تعالى: أفأمِنَ الذين كَفَروا باللّهِ وعَصَوه - ومِن ذلك سَعيُهم في إبطالِ الإسلام، وكَيدُهم بالمُسلِمينَ لإيذائِهم - أن تبتَلِعَهم الأرضُ فيَغيبوا في بَطنِها، أو يأتيَهم عذابُ اللّهِ غِرَّةً مِن حيثُ لا يَشعُرونَ بمَجيئِه إليهم، ولا يَدرونَ مِن أين يأتيهم[9]، "فكيف

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خسف).
(2) النَّوويّ، تهذيب الأسماء واللُّغات: 4/ 10.
(3) الرّاغب، المفردات: (عذب).
(4) الخليل، العين: (عذب)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 258.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (شعر).
(6) الرّاغب، المفردات: (شعر).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 278.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 166.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 232، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 575، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 441.

يَصِحّ بعد كلّ هذا، أن يتمادى المشركون في عنادهم، ويُدَبّروا المكائدَ للرّسول ﷺ؟ هل أغراهم حِلْمُ اللّهِ بهم فاعتقدوا أنّهم في مأمن مِن عذاب اللّه، فلا يَخْسِف بهمُ الأرضَ كما فعل بقارون؟ أو يأتيهمُ العذابُ فجأةً بصاعقة، كما فُعِلَ بثمود، وهم لا يدرون أين نزل"[1].

العقابُ الإلهيّ في الدُّنيا حقٌّ وعدلٌ، ولا يجيء إلّا بعد العصيان والإنذار

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الهمزةِ الاستفهاميَّة:

بيان الإنكار على الكفّار، والاستخفافِ بهم وبعقولهم، الصّغار

في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ﴾ استفهام تَعجُّبيٌّ؛ لأجل الإنكار على الكفّار، والاستخفافِ بهم وبعقولهم، إذ كيف يأمنون عقابَ اللّهِ وعذابَه، وقد علموا ما فعل بالّذين مِن قبلهم، ممَّن يمرّون على مساكنهم المُهَدَّمة مِنَ العذاب، كأهل الحِجْرِ، وهم قوم صالح عليه السلام، وقُرى قومِ لوطٍ وغيرهم[2].

وتهديدهم الصَّريح بعذاب الدُّنيا، بطريق استفهام التَّعجيب مِن استرسالهم في المُعاندة، غيرَ مُقدِّرين أن يقع ما يهدِّدُهم بهِ اللّهُ على لسان رسوله ﷺ، فلا يُقلِعون عن تدبير المَكر بالنَّبيّ ﷺ، فكانت حالُهم في استرسالهم، كحال مَن هم آمنون بأسَ اللّهِ، فالاستفهام مُستعمَلٌ في التَّعجيب المَشوب بالتَّوبيخ[3]، فيجب ألّا يأمَنوا عقوبةً تلحقهم، كما لحقتِ المُكذبين[4].

دلالة الفاء:

الدّلالة على أنَّ مَكْرَهُم هو مَكْرُ عنادٍ وجُحودٍ وكِبْرياء

الفاء في ﴿أَفَأَمِنَ﴾ عاطفة على محذوف يُرشد إليه النَّظمُ، أي: أنزلنا إليك الذِّكر لتُبيِّن لهم مضمونه، ولم يتفكَّروا في ذلك، فكأنَّه قيل: ألم يتفكروا، فأمِنَ الّذين مكروا السَّيئات[5]، وهذا يَدُلُّ على أنّ

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 392.
(2) القدّوميّ، التَّفسير البيانيُّ، ص: 91.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 164.
(4) القرطبيّ، تفسير القرطبيّ: 10/ 109.
(5) الدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 5/ 308.

مكرهم بدين الله رغم ما علموا من عذابه للأمم السّابقة، هو مَكْرُ عناد وجحود وكِبْرٍ[1].

مرجع العطف في ﴿أَفَأَمِنَ﴾، وأثره البلاغيّ:

الإيجـــازُ في اللّـفظ لتنوع المـعـنـى، مع إفـادة التّرتيبِ والتّعقيب

1. كُلُّ ما جاء في القرآن مِن همزة استفهام بعدَها واو العطف أو فاؤه؛ كهذا الموضع، وكقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ [الزُّخرف: 5]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [سبأ: 9]، فيه وجهان معروفان عند علماء العربيَّة؛ أحدُهما: أنَّ الفاء والواو كِلْتاهُما عاطفة ما بعدَها على محذوف دَلَّ المقام عليه؛ فالتَّقديرُ هُنا: أجَهِلَ الّذين مَكروا السِّيئات وعيدَ اللّهِ لهم بالعقاب، فأمنوا مَكْرَه، وفي آية الزُّخرف: أنُمهلكم فنضربُ عنكم الذِّكرَ صَفْحًا؟! وفي سبأ: أعَموا فلم يَرَوا إلى ما بين أيديهم؟! وهكذا...، فعلى هذا الوجه، يكون في الآية إيجازٌ بالحَذْف، حيثُ حُذِفَ المعطوفُ عليه، وجملة الاستفهام للإيجاز، الوجه الثّاني: أنَّ الفاء والواو، كِلْتاهما عاطفةٌ للجُملة المُصَدَّرة بهمزة الاستفهام على ما قبلَها؛ إلّا أنَّ همزة الاستفهام تزحْلَقت عن محلّها، فتقدّمت على الفاء والواو، وهي متأخّرة عنهما في المعنى، وإنَّما تقدَّمت لفظًا عن محلِّها لا معنًى؛ لأنَّ الاستفهام له صَدرُ الكلام[2]، فَيكون المَعْنَى: (فَأَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ)؛ فالفاءُ عاطِفَةٌ للجملة المصدّرة بالاستِفْهامِ[3].

سِرُّ التَّعبير بالاسم الموصول دونَ الصَّريح:

شمـولُ الوعيدِ لكلِّ كافرٍ ماكِرٍ، وكلِّ متآمرٍ غادِرٍ

المقصود مِن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، هم أهلُ قريش ابتداءً، ثُمَّ مَن سار على دربهم، واقتدى بنهجهم؛ وعليه فإنّ "هذه آيةٌ تهديدٍ لأهل مكّة في قول الأكثرين، ومعناها: أفأمن الكفّارُ العُصاةُ الّذين

(1) القدّومي، التَّفسير البيانيّ، ص: 91.
(2) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/ 281 - 382، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 160.
(3) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/ 382.

يعملون السّيّئات، ويمكرون بالنّاس في دعائهم إلى الضّلال، ويُسيئون إلى الرّسول ﷺ، ويحاولون صَدّ النّاسِ عن الإيمان بدعوته"عقابَنا، وتوهَّموا أنَّهم لن يصيبَهم شيءٌ مِن عذابنا، الّذي مِن مظاهره خَسْفُ الأرض بهم، كما خَسَفْناها بقارون مِن قبلهم، إنّ جهلهم هذا لدليلٌ على انطماس بصيرتهم، واستحواذِ الشّيطان عليهم[1].

بلاغة التّضمين:

يجوز أن يُضَمّن ﴿مَكَرُواْ﴾ معنى (اقترفوا)، فانتصب السَّيِّئاتِ على المفعوليَّة به[2]، وعلى تضمين ﴿مَكَرُواْ﴾ معنى (اقترفوا وعملوا)، فإنَّ السّيّئات على هذا معاصي الكفرِ وغيرِه[3]، والسّيّئاتُ المقصودة، منها: "محاولةُ قتلِ النّبيّ ﷺ، والشّركُ، والتّكذيبُ بالنّبوّة والبعث، وظُلْمُ المؤمنين، وتعذيبُ بعضِهم"[4]، وكلُّ ذلك مُعرَّض به في الآية، ومُسْتَنكَر مِن طرف الله، الّذي لا يبغي لعباده ضَررًا، ولا سوءَ عاقبةٍ.

دلالةُ السَّيِّئات على الكُفر والمعاصي، للآخِذ بالمقاليد والنّواصي

بلاغةُ الكنايةِ:

في قوله تعالى: ﴿مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، المَكرُ: هو إعمالُ الرَّأي والحِيلةِ في الأمور، ومنه ما هو حَسَنٌ، ومنه ما هو سيّئ، وهؤلاء إنَّما مَكرُهم مِنَ النَّوعِ السَّيِّئ الّذي يُبْعِدهم عنِ الخير، ويُعرِّضُهم للهلاك، والبَوار[5]، و﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ تحتمل وجهين؛ أحدهما: يُريد به الأعمالَ السَّيّئاتِ؛ أي: المعاصي، فيكونُ الفعل ﴿مَكَرُواْ﴾ يتضمَّن معنى (عملوا)، والآخر: أن يريد بالمَكَرات السَّيّئات، مَكْرَهم بالنَّبي ﷺ؛ فيكون المَكْر على بابه[6]، وفي هذه الكناية تهديدٌ للماكرين

احتمالُ المكر الخاصّ والعامّ في كُلِّ سَيِّئَة، مِنَ الخواصّ والعوامّ

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 8/ 160، والتّفسير البيانيّ، ص: 91.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 164.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 534.
(4) أبو بكر الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 123.
(5) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 302.
(6) ابن جزي، التّسهيل: 1/ 427، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 396.

مِن مشركي مكّة لرسول الله ﷺ، فيكون المُرادُ: المُجتمعين في دار النَّدوة، على المَكْر به ﷺ، بحبسه أو قَتْلِه أو إخراجه، وعلى أصحابه بالصَّدِّ عن دين الله ﷻ، أو الماكرين عمومًا[1].

السِّرُّ وراءَ حَذفِ المصدر (المكرات):

بيانُ أنّ مكرَهم ليس مُجَرَّدَ مكرٍ سيّئ، بل مَكَروا السّوءَ ذاتَه

قوله تعالى: ﴿مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، وفيه ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ صفةٌ لمصدرِ ﴿مَكَرُواْ﴾ محذوفًا، يُقَدَّر مُناسِبًا لتأنيث صفته، إذِ التَّقدير: مَكَروا المَكَراتِ السَّيِّئات، كما وُصِفَ المَكْرُ بالسَّيِّئ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: 43]، والتَّأنيث في مثل هذا يُقصَد منه الدّلالة على معنى الخَصْلَةِ أو الفَعْلَة، كالغَدْرَة للغَدْرِ[2]، وإنَّما حُذِفَ المصدر (المكرات)، ليَدُلَّ حَذْفُه على أنَّهم ما مَكَروا مُجَرَّدَ مَكْرٍ سَيِّءٍ سيِّئٍ، بل مَكَروا السّوءَ ذاتَه[3]، ولأبي زهرة رأيٌ آخر، يرى فيه عدمَ الحذف، فيقول: "ونحن نرى أنّه لا حاجة إلى تقدير موصوفٍ محذوف؛ لأنّ المَكْر - وهو التّدبير - متّجهٌ إلى إنشاء السّيّئات، فهم دَبّروا السّيّئات في إيذاء المستضعَفين، ودَبّروا السّيّئات في الأقوال والأفعال، طوالَ إقامةِ النّبيّ ﷺ بينَهم في مكّة، لم يتركوا نوعًا مِنَ السّيّئات إلّا دَبّروها، وهم يعلمون قوّةَ الله القاهرة، وأنّه الذي يُلْجَأ إليه في المُلِمّات، فلم يكونوا جاهلين لها، وإن عبدوا معَ الله الأحجارَ والأوهامَ، فإذا نبهَهُمُ الله تعالى بأنّه قادرٌ على خَسْف الأرض مِن تحتهم، فهم لا يجهلون ذلك"[4].

سرّ التَّنصيص على (الخسف):

الخَسْفُ مِن أشدّ أنواع العذاب، وأقسى ألوانِ الهلاك

قوله تعالى: ﴿أَن يَخْسِفَ﴾، فيهِ التَّنصيصُ على نوع مِن أنواع العذاب - وهو الخَسْفُ - ، وذِكرُه في البداية يدلّ على شِدّته[5]،

(1) أطفيّش، تيسير التَّفسير: 7/ 456.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/ 228، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 165.
(3) القدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 91.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4186.
(5) القدوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 91.

والخَسْفُ هنا عقوبةٌ تقابلُ المَكْرَ الّذي فعلوه، قال الكلبيُّ: المراد بهذا المكر: اشتغالهم بعبادة غير الله تعالى، والأقربُ أنّ المراد: سعيُهم في إيذاءِ الرّسولِ وأصحابِه على سبيل الخفيةِ، ويكون الجزاءُ على ذلك الخسفَ، والمعنى في السّياق الآنف: أن يخسف اللّهُ بهم الأرض؛ كما خسف بالقرون الماضية[1]، وكما كان المَكرُ خفية غيرَ متوقّع، وضررُه شديد، فكذلك الخسفُ، يكون غيرَ متوقّع، وضررُه أشدّ وأنكى، إذْ ما يكون مِنَ اللّه أعتى ممّا يكون مِنَ العبد.

دلالةُ تعديَةِ الخسفِ بالباء:

بيانُ العقابِ المهول بالخسف، بأن تُجعَل الأرضُ خاسِفَةً به وبداره

خَسَفَ مِن باب ضَرَبَ، ويُستعمل قاصرًا ومُتعدِّيًا، يُقال: خَسَفَتِ الأرضُ، ويُقال: خَسَفَ اللّه الأرضَ، قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: 81]، ولا يتعدَّى إلى ما زاد على المفعول إلّا بحرف التَّعدية، والأكثرُ أن يُعدَّى بالباء كما هو هُنا، وقوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: 81]، أي: جعلناها خاسفةً به، فالباء للتَّعدية، أي: يُدخلهم ويُذهبهم، كما يُقال: ذُهب به، ويحتمل أن تكون للمُلابسة، والمعنى: يقلبُها مُتلبسةً بكم، فيغيِّبُكم فيها؛ والأوَّل أشهر[2].

نُكْتَةُ تقديمِ الجارّ والمجرور على المفعول:

الزِّيادةُ في التَّهديد والوعيد، لمنِ اجترح السَّيِّئات

قولُه تعالى: ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: خاصَّة[3]، وذِكْرُ الجارِّ والمَجرور ﴿بِهِمُ﴾ قبلَ المفعول به ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ زيادةٌ في تهديد الكفّار؛ لأنَّ القَصْد مِنَ الخَسْف هم لا الأرضُ[4].

بلاغة العطف في قوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾:

عطفُ العامِّ المُستمرِّ، على الخاصِّ الآنيّ، مِن فصيح البيان

العذابُ يَعُمُّ كُلَّ ما فيه تأليم يستمرُّ زمنًا، فلذلك عُطِفَ على الخَسْف، مِن باب عطفِ العامّ على الخاصِّ[5]، وقد: "أنكر اللّهُ ﷻ

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 64.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 389، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 165.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 169.
(4) القدوميّ، التّفسير البياني، ص: 91.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 165.

على الّذين يعملون السّيّئاتِ مِنَ الكُفر والمعاصي، ومع ذلك يأمنون عذابَ اللّه، ولا يخافون أخْذَه الأليم، وبَطْشَه الشّديد، وهو قادر على أن يخسف بهم الأرضَ، ويهلكَهم بأنواع العذاب"[1].

سِرُّ العُدول في نسبة التَّعذيب إلى الله تعالى:

إتيانُ العذاب مِنَ اللّه كونُه أبلغَ في التَّخويف، وأدلَّ على استحقاق العذاب

قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾، وفيه أنّه كان الظّاهرُ في الآية أن يُقال: (أو يُعَذِّبَهم مِن حيثُ لا يشعرون)؛ ليُناسبَ ما قبلَه وما بعدَه، بناءً على أنَّ إسناد الفعلِ فيهما إليه تعالى، وما قبله فقط، بناءً على أنَّ إسناد الفعل فيما بَعْدُ إلى العذاب، مع كونه أخصرَ ممّا في النَّظم الجليل، لكنَّه عَدَلَ عنه إلى ذلك، لكونه أبلغَ في التَّخويف، وأدلَّ على استحقاق العذاب، مِن حيثُ إنَّ فيه إشعارًا، بأنَّ هُناك عذابًا موجودًا مُهَيَّئًا، لا يحتاج إلّا إلى الإتيان دونَ الإحداث، وليس في (يعذّبهم) إشعارٌ كذلك[2].

بلاغة المجاز العقليّ:

الإشعارُ بأنَّ العذاب سيُفاجِئُهم بحصوله ووقوعِه بهم

إتيانُ العذابِ: حلولُهُ وحصولُه، وهو مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ حقيقة الإتيان المَجيء، وهو الانتقال مِن موضع بعيد إلى الموضع الذي استقرّ فيه مفعول الإتيان، فيُطلَق مَجازًا على حصول شيءٍ لم يكن حاصلًا، كما أنَّ الإتيان مُشْعِرٌ بأنَّه يُفاجِئُهم كما يأتي الطّارق[3].

بلاغة الكناية:

مِن فصيح البيان، الدّلالةُ على الجِهَةِ، والمُفاجأةُ بالعذاب

قوله تعالى: ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، أي: مِن مكان لا يَترقَّبون أن يأتيَهم منه ضُرٌّ، أو مِن حيثُ لا يشعرون أنَّه يأتيهم بغتةً، لا يستطيعون دفعَهُ؛ لأنّهم لبَأْسِهم ومَنَعَتِهم لا يبغتُهم ما يحذرونه، إذ قد أعدّوا له عُدَّته، فكان الآتي ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ عذابًا غيرَ

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/ 380.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 391.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 165.

معهود، فوقع قولُه: ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، كنايةً عن عذاب لا يُطيقون دَفْعَه بحسب اللُّزوم العُرْفيّ[1].

دلالةُ حَذفِ مفعول ﴿يَشۡعُرُونَ﴾:

الإشارة إلى أنّ هذا العذابَ الواقعَ، يأتيهم بغتةً، وما له مِن دافع

قوله تعالى: ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، التَّقدير: مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرونَ أنَّهُ يَأْتِيهِم بَغْتَةً، فيَجْهَلونَ مِن أين يأتيهم، وكيف يأتيهم، وقد يأتيهم مِن مأمنهم، وأفزعُ العذابِ والضّرِّ ما يأتي مِن حيثُ لا يحتسبُ الإنسانُ، أمّا إذا كان من حيثُ يحتسب فإنَّه يُهَيّئ نفسَه لاستقبال العذابِ، ألا ترى أنَّ النّاسَ يستقبلون أنباءَ القتلِ في الحروب استقبالًا لو كان في السّلم لكان أعظمَ[2]، وفي هذه الجملة الكريمة إشارةٌ إلى أنَّ هذا العذاب الّذي يأتيهم مِن حيثُ لا يشعرون، عذابٌ لا يمكنُ دَفْعُه أو الهُروبُ منه؛ لأنَّه أتاهم بغتةً، ومِن جِهَةٍ لا يترقَّبون الشَّرَّ منها، وشبيهٌ بهذا قولُه سبحانه: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ﴾ [الحشر: 2][3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإتيانُ والمجيءُ:

المجيءُ هو تمامُ الإتيان واكتمالُه، وكلُّ مجيءٍ إتيانٌ، وليس كلُّ إتيانٍ مجيئًا

الإتيان: مَجيءٌ بسُهولَةٍ[4]، فإذا اكتمل وبلغ مقصِدَه مِن مكان أو زمان أو شخص أصبح مجيئًا، فالمَجيء: هو إتيان محّققٌ، بعيدٌ عن عوامل النّقص، والإتيان هو الأعمُّ والأشمل، وهو البداية، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: 129]، ومجيءُ الرُّسلِ حَدَثٌ وتفاعلٌ وتعايشُ وقتٍ ما، معَ الدَّعوة بالأدلَّة والبراهين.

فالإتيان بدايةُ المَجيء زمانيًّا أو مكانيًّا، وقد لا يتمُّ فلا يكون

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 166.
(2) القدومي، التَّفسير البياني، ص: 91.
(3) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 160.
(4) الرّاغِبُ، المُفْرداتُ: (أتى).

مجيئًا، أمّا المَجيءُ: فهو إتيانٌ محقّقٌ، قريبٌ زمانيًّا ومكانيًّا[1]، وفيه معنى المَشَقَّةِ والصُّعوبة[2].

الكيدُ والمكرُ:

المكرُ ما يكون بعدَ نظرٍ وتَفَكُّرٍ، والكيد آكَد منه وأشَدُّ

ظاهر كلام أهلِ اللّغة، أنَّ الكيد والمَكْر مُترادفان، وقد فرّقَ بينَهما بعضُ فقهاء اللّغة، فقال: الكَيدُ المَضرّةُ، والمَكْر: إخفاءُ الكيدِ وإيصالُ المَضّرة، وقيل: الكيد: الأخذ على خفاء، وهو ضربٌ مِنَ الاحتيال، وقد يكون مذمومًا وممدوحًا، وإن كان يُستعمل في المَذموم أكثر[3]، ولا يُعتَبر فيه إظهارُ خِلاف ما أبطنَه، ويُعتَبر ذلك في المَكْر[4].

والكَيدُ – في حقِّ المخلوقِ – لا يكونُ إلّا بعدَ تدبُّر وفِكْرٍ ونظَرٍ، وأمّا المَكْر فهو مِثْلُ الكَيْدِ في كَوْنِه – في حقِّ المَخْلوق – لا يكون إلّا بَعْدَ فِكْرٍ ونَظَرٍ، إلّا أنَّ الكَيْدَ أقوَى مِنَ المَكْرِ[5].

والكَيْدُ يتعدَّى بنفسه، والمَكْر يتعدَّى بحرف، فيقال: كادَه يَكِيدُه، ومَكَرَ به، ولا يُقال: مَكَرَه، والّذي يتعدَّى بنفسه أقوى، والمَكْر أيضًا تقدير ضَرَرِ الغير مِن أن يُفْعَل به، ألا ترى أنَّه لو قال له: أقْدِرُ أن أفعلَ بكَ كذا، لم يكن ذلك مَكْرًا، وإنَّما يكون مَكْرًا إذا لم يُعْلِمهُ به، والكَيْد اسمٌ لإيقاع المكْروه بالغير قَهْرًا، سواء عَلِمَ أو لم يعلم[6].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جيأ).
(2) فاضل السّامرائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 97.
(3) الرّاغب، المفردات: (كيد).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (كيد).
(5) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص213، 508، والكَفويّ، الكليّات، ص: 771.
(6) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 259.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-23-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26 : المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-23-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»